أحاديثنا العامة

مرآة عقليتنا ورقينا الاجتماعى

عند ما يلق الإنسان منا باله إلى الأحاديث العامة فى الأماكن المشتركة وفى مراكب الترام والسيارات والقطارات تستلفت نظره عدة ظواهر تستدعى الانتقاد وتسوء دلالتها على مستوانا النفسى والفكرى والاجتماعى .

وأول ما يستلفت النظر فى هذه الأحاديث أنها تتم بصوت مرتفع مع تقارب المتحادثين كأن المقصود من هذا الارتفاع هو التغطية على أصوات المتحدثين الآخرين . وقد تكون فى موضوعات عائلية أو خصوصية لا شأن للآخرين بها ، ومع ذلك يعلمها كل الجالسين أو الركاب ويلقون انتباههم إليها على الرغم منهم ؛ لأن طبقة الأصوات عالية جدا والإشارات والحركات التى تتبعها مما يلفت النظر .

وبعض الناس لا تلذ لهم المناقشات السياسية أو الحزبية أو التعليقات المختلفة على شؤون الحرب وشؤون الاقتصاد إلا فى هذه الأماكن العامة وفى عربات الترام والمركبات العمومية والقطارات ؛ وذلك حق من حقوقهم لو كانت المناقشات هادئة لا تتعدى المتحدثين ؛ ولكنها كثيرا ما تتحول إلى ضجة وضوضاء ، بل إلى تهم وشتائم عند اختلاف الآراء ، يجبر الآخرون على سماعها ومتابعتها وهى لا تعنيهم فى قليل ولا كثير .

ومما يلفت النظر كذلك فى الأحاديث العامة تفاهتها وانحصارها فى موضوعات دارجة فعظمها لا يخرج عن الطعام واللباس والزيارات الخاصة ؛ وكثيرا ما يكون القصد منها هو الإعلان — ولا سيما حين تكون المتحدثة امرأة — ومع هذا فإن جميع الحاضرين مجبرون على أن يعرفوا أن هـذا السيد يحب " الملوخيا " وقد أمرهم فى البيت قبل أن يخرج بأن يطبخوها وأنه سيتمتع اليوم بتناولها ! وهم مجبرون على أن يسمعوا أن هذه السيدة اشترت " فستانا " جديدا من عند " شيكوريل " (ولا بد أن تذكر اسم المحل) وأنه " شيك " وأن " ست فلانة " بنت " فلان بك " معجبة به أشد الإعجاب ، أما " ست فلانة " بنت " فلان باشا " فهى مغتاظة منه تريد أن تشترى مثله بأى شكل كان !

وهذا كله قد يكون محتملا بالقياس إلى نوع آخر من الحديث بين بعض الشبان وبعض ، بل بين بعض الفتيات وبعضهن . تذكر فيه أخبار السهرات الداعرة والليالى الحمراء ، وتذكر فيه أسماء البنات والصديقات ؛ فإذا كان الحديث بين سيدات أو فتيات ذكرت النعوت

المخجلة ملحقة ببعض الأسماء النسوية ، وفيهن من هن من أسر معروفة . والحاضرون جميعا مضطرون لسماع هذه الفضائح ، وسماع الألفاظ البذيئة ، وفيهم الرجل الكريم والمرأة العفيفة والشاب المهذب والفتاة الطاهرة والأطفال الأبرياء .

* * *

ولا أريد أن أمضى فى تعديد الظواهر السيئة لأحاديثنا العامة ، فكل من يلق باله إليها فى أى مكان يدركها بسهولة . ولكنى أريد أن أبحث عن العلة فيها وعن وسائل علاجها إن أمكن وترجع هذه الحالة إلى عدة أمور .

أولا : إن البيت المصرى لم يعمر بعد بالثقافة لقلة الأمهات المتعلمات تعليما يؤهلهن لأداء وظيفتهن الخطيرة . والحديث فن لا بد له من الثقافة المناسبة والشخصية البارزة ؛ ولا بد له من المرانة كذلك . والسيدة المثقفة هى التى تملك هذه المميزات ، وهى التى تستطيع أن تطبع المنزل بطابعها ، وأن تدرب أطفالها على الحديث الهادئ المتزن المثقف .

وفى البيت المصرى عيب آخر لعل منشأه هو العيب الأول ، وهو أنه ليس بيتا بالمعنى الذى تؤديه لفظة " هوم " الانجليزية ، أى أنه محروم من الجو الروحى والعائلى الذى يمتاز به البيت الأوربى ، فقصارى ما يبلغه هذا البيت أن يكون مطعما جيدا أو فندقا مرتبا . أما الصلات العائلية بين الزوج والزوجة و بينهما و بين الأبناء ، والسمر اللطيف بعد العشاء والمشاركة الوجدانية بين الجميع ، والمناقشات والتعليقات العامة . فكلها أمور مفقودة فى البيت المصرى .

ولهذا لا يعتاد الأطفال "فن الحديث" فيشبون ويكبرون وهم على جهل به ، ومن هنا تكون تلك الظواهر فى أحاديثنا العامة بين الشبان والرجال و بين الفتيات والسيدات .

وثانيا : خلو مجتمعاتنا من "سيدات المجالس" فهن عنصر مفقود فى مصر إلا فى النادر القليل ؛ وقد حالت تقاليدنا الاجتماعية دون وجود هذا العنصر الذى يعد نموذجا طيبا ينقل عنه كثير من السيدات والفتيات الناشئات . وكان من الممكن تعويض فقدانه لو أن مجتمعاتنا النسوية عالية الثقافة ، فالمرأة المثقفة مضطرة بحكم ثقافتها أن تتناول مسائل أرقى مما تتناوله أحاديث سيداتنا الآن ، وأن تدير الحديث بطريقة مهذبة الصوت والإشارة ، وللسيدة تأثير كبير فى بيئتها ، فلعل انتشار تعليم المرأة يهذب هذا الوضع المسىء للمجتمع العام .

وثالثا : عزلة المدرسة وانحسارها عن المجتمع ، واقتصارها على التعليم دون التربية ، فقلما تعنى المدرسة عندنا بتدريب التلميذ والتلميذة على أدب الحديث ، وعلى إدارة المناقشة . ثم هى قلما تعنى بالخروج بتلاميذها عن الجو المدرسى إلى جو المجتمع وتناول المسائل العامة

وجعلها موضع دراسة أو حديث . بل لقد يعاقب المدرس الذى يحاول هـذه المحاولة بحجة تدخله فى الشئون العامة ، أو بحجة اضاعة الوقت على التلاميد .

ورابعا : تفاهة ما يشعلنا من الهموم، وعدم نمو ثقافتنا بالمطالعة أو بتتبع المسائل العامة ولذلك تدور أحاديث العامة على مسائل محدودة لا تتعدى المطالب الفردية أو الطائفية : الفردية كالطعام والشراب واللباس والطائفية كالعلاوات والترقيات " و الروتين " اليومى للموظف أو العامل .

ومن حق كل إنسان أن يتناول هذه المسائل ، ولكن ليس من حقه أن يشغل بهـا الآخرين ، فضلا على أنه من العيب أن تكون هده كل همـــومه فى الحياة ، وألا تخرج أحاديثه عنها، فاذا خرجت إلى جدل سياسى أو حزبى نقلب الجدل الى مهاترة وضجة يتأذى بهـا الآخرون .

⁂

وعلاج هذه الحال يتم فى عدة مراحل :

أولاها : وجود الأم المتعلمة المستنيرة على رأس الأسرة وعنايتها بتحويل المنزل الى بيت يجتذب الزوج ويحمـله على المشاركة فى خلق الجو العائلى به ، وتخصيص بعض الأوقات للسمر والمنـاقشة والتعليق بحضور الأبناء والبنات ، وتناول موضوعات علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعائلية فى هذه الأحاديث ، وافساح المجال لكل طفل فى البيت ليشترك فى هذه الأحاديث ، فتصحح له أخطاؤه اللفظية والفـكرية والصوتية تارة بالقدوة وتارة بالإرشاد .

وثانيتها : عناية المدرسة بتربية التلاميذ بدل الاقتصار على تعليمهم ، ومن أخص خصائص التربية تمية الشخصية وإبرازها فى حسن التصرف وحسن الحديث ، ومن أهم الوسائل المؤدية إلى المرانة فى هـذا الجانب تخصيص بعض الوقت للاجتماعات الحرة بين التلاميذ والأساتذة والنظار بحيث ترتفع الكلفة وتزول الحواجز وتخف القيود ، ويتاح للجميع أن يديروا الأحاديث بعيـدا عن المسائل الدراسية التى تدرس فى الفصول وتبلغ هذه الاجتماعات درجة الكمال لو أتيح لأولياء الأمور أن يحضروها وأن يشتركوا فى مناقشاتها وأن يستفيدوا منها ويفيدوا أبناءهم كذلك .

وثالثتها : بث روح الثقافة وحب الاطلاع فى نفوس الأطفال والكبار، فالقراءة تجدد النفس والفكر ، وترفع الهموم الى مرتبة عالية بعيدة عن ضرورات الحياة اليومية التافهة. والأحاديث دائمـا متنفس لهذه الهموم ، فسترتفع بارتفاعها ، فتبرأ من هذه التفاهة المخجلة

حول الطعام واللباس والسهرات الخاصة والأسرار الشخصية والوشايات والتشنيعات ، ولا سيما فى الاوساط النسائية التى تقضى الساعات فى مثل هذه التفاهات .

ومما يؤسف له أن المدرسة الأجنبية تفوق المدرسة المصرية فى هذا كله — ولا سيما مدارس البنات — فالحياة الاجتماعية هناك موفورة والعناية بها واضحة ، والآداب الاجتماعية تنال قسطا كبيرا من الإرشاد النظرى والتدريب العملى . وليس بالقليل ما تعتاده الطفلة منذ اليوم الأول فى المدرسة الأجنبية من تحية الوالدين فى الصباح عند مغادرة البيت وتحيتهما عند عودتها ، وكذلك تصنع مع مدرستها وزميلاتها فى ابتسامة رقيقة و إيماءة ظريفة ، تصبحان فيما بعد من سمات هذه الطفلة حين تصير شابة وسيدة .

وذلك عدا الحفلات العائلية والأحاديث الشخصية ، وعقد الصلة الروحية بين التلميذات والتلاميذ و بين المدرسات والمدرسين ، والانتفاع بهذه الصلة فى تكوين الشخصية وتهذيب العادات والأفكار ، و إصلاح الحركات والإشارات .

ولا مجال للموازنة بين البيت المصرى والبيت الأوربى من هذه الناحية . ولكن لا داعى إلى اليأس فالأم المتعلمة الراقية كفيلة بإحداث التوازن ، وتحقيق ما نرجوه فى هذا الاتجاه غير أنه ينبغى أن تكون مدارس البنات معامل تصهر شخصياتهن وتردها شخصيات اجتماعية كاملة تعلم كل واجباتها النسوية وكل وظائفها التربيية ، التى تنشىء عليها الجيل ، وتخلق بها المجتمع خلقة جديدة ، سليمة من العيوب والآفات .

طبعت بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٦١
(أول أبريل سنة ١٩٤٢) م
مدير المطبعة الأميرية
محمد بكرى